أثر الالتزام بالحقوق والواجبات في أمن المجتمع وسعادته

لقد حرص الإسلام على تماسك المجتمع، ووحدته وتماسك أركانه، ذلك أن المجتمعات لا يمكنها الوقوف في وجه المتغيرات بأنواعها المختلفة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والأمنية، إذا لم يكن هناك ثمة وحدة صف أو ترابط في المجتمع. وتعد الأسرة المرتكز في هذا الترابط وأساسه المتين، فلا يمكن تصور الكل وهو متماسك دونما تلاحم في الجزء، ولا يمكن للمجتمع الكلي التماسك دونها لحمة في مكونه الرئيسي الذي هو الأسرة.

من هنا نجد التأكيد المبكر في حياة الإنسان على اختيار نواة الأسرة الصالحة التي تمثل ركنها الثاني، وهي الزوجة، في قوله ﷺ: «تُنكحُ المرأةُ لأربعٍ: لمالِها، ولحسبِها، وجمالِها، ولدينِها، فاظفَرْ بذاتِ الدينِ تربتْ يداكَ».

ثم الحرص على حسن تربية الأبناء، والقيام بحقوقهم كاملة لينشأوا النشأة الإسلامية الصحيحة، حيث يعد ذلك مقصدًا أساسًا من مقاصد الشريعة في النكاح والزواج الذي سيكون النواة الإسلامية للأسرة الصالحة التي ستشكل القاعدة الضرورية لقيام الأمة الصالحة التي هي خير أمة أخرجت للناس.

ولأجل تلك المقاصد العظمى أخذت أحكام الأسرة في الفقه الإسلامي حيزًا واسعًا شرحًا وتفصيلًا، وذلك بالنظر إلى المفهوم الواسع للعبادة بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، وذلك عائد لما يوليه الشرع من أهمية الموضوع الأسرة وترابطها، وديمومتها في أمن وسلام.

إن الحقوق والواجبات الأسرية إنما شُرعت لصلاح الأسرة ابتداءً، والمجتمع انتهاءً، ولا يُتصور صلاحهما دون نظام أخلاقي يضبط هذه العملية الإصلاحية ويوجهها.

إن الإسلام حين يطالب أفراده بالقيام بالحقوق التي عليهم إنما يهدف من وراء ذلك المبادأة بالخير من كل طرف ليقابله الطرف الآخر بمثله أو يدفع به شره على أقل الأحوال. يقول تعالى: «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» (فصلت، الآية: ٣٤).

إن الإسلام حريص كل الحرص على جمع الكلمة وإظهار وحدة المجتمع المسلم وتماسكه، بل يسعى إلى ذلك بشتى الطرق وبالحث المباشر، ومن ذلك قول المصطفى ﷺ: «المسلمُ إذا كان يُخالطُ الناسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، فالإسلامُ دينُ اجتماعٍ يكرهُ الانفرادَ والانعزالَ، ويحثُّ على التخالطِ والتحابِّ، ودلَّ أتباعَهُ على الأفعالِ التي تؤدي إلى التحابِّ وعدَّها من صميم الإيمان، وإن كانت يسيرةً في نظر بعض المسلمين. فمن ذلك قوله ﷺ: «لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»، وهذا أمرٌ يسيرٌ ولكن أثرهُ عظيمٌ، فهو يبدأ بإفشاء السلام وينتهي بالمؤمن بدخول الجنة.

إنَّ هذا الترابطَ في المجتمعِ الذي ينشده الإسلامُ لا يمكنُ تصورهُ دون أن يكون هناك ترابطٌ في الأسرةِ ذاتها، وترابطُ الأسرة سواءٌ الصغيرةُ منها أو الكبيرةُ في محيط الأقاربِ عامةً، لا يكون إلا بكسب القلوب واستجلاب محبتها، وهذا لا يكون بالأموال، ولكن كما قال الرسول ﷺ : «إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»

الأسرةُ هي المنشأُ لهذه الأخلاقِ، وهي الحاضنةُ لها، وفيها يكون تعلمها ابتداءً ثم العمل بها، وفيها، ومن خلالها. فالأسرة تقوم بدورٍ هامٍ في عملية التنشئة الاجتماعية، ذلك كونها المحيط الأول الذي ينشأ فيه الطفل ويقضي فيه معظم وقته إن لم يكن كله في سنواته الأولى. وقد أجمعت الخبرات الإنسانية ودلت تجارب العلماء على ما للتربية في الأسرة من أثر عميق وخطير يتضاءل دونه أثر أي شيء آخر في تحديد الشخصيات وتشكيلها. وتتركز خطورتها في أن ما يغرس في ثنايا السنوات الأولى من حياة الطفل من خلال الأسرة من عادات واتجاهات وعواطف يصعب تغييره أو استئصاله، ومن ذلك القيم الخلقية.

إنَّ هذه القيمَ الخلقيةَ التي يتعلمها الطفلُ في الأسرةِ والتي نحن بصدد الحديث عنها، حيث يتعلم الطفل من محيطه الأسري تلك الأخلاق الحميدة، أو يتعلم ضدها، فالأمر لا يتوقف على مجرد الممارسة من الأبوين فحسب، بل يستتبع ذلك تعلم الأبناء أنفسهم لتلك الممارسات. وحسبك في ذلك حديث المصطفى ﷺ : «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

ومنهُ فإنَّهُ كلَّما كانت الأسرة متمسِّكةً بدينها، ومن ذلكَ التَّعاملُ الأخلاقي في محيطِ الأسرةِ، انعكسَ ذلكَ على تربيةِ الأطفالِ، ويَحكُمونَ الدِّينَ ومبادئَهُ وأحكامَهُ في تصرُّفاتهم وممارساتِهم المستقبلية، فسلوكُ المستقبلِ ما هوَ إلَّا نتاجُ تربيةِ الحاضرِ، وإن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ واللهُ المستعانُ.

إنَّ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ التَّعاملَ الأخلاقي من قبل المسلم تجاه أفرادِ المجتمعِ سيؤدي بالضرورة إلى انتشار الاحترام المتبادل بين أفراد المجتمع، والاحترام المتبادل بين المسلمين هو صورة من صور التراحم، وجانب من جوانبه، والتراحم من الخلق الذي حثَّ عليه الإسلام في أكثر من موطن، بل وامتدح القرآن الكريم المجتمع المسلم الأول بأنه متراحم فيما بينه، فقال تعالى: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» (الفتح، الآية: ٢٩)، فأثنى عليه الله عزَّ وجلَّ بكونهم رحماء بينهم مقابل الشدة على الكفار.

كما أوصى الله عز وجل المسلمين بالتواصي بالتراحم، فقال عز من قائل: «ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ» (البلد، الآية: ١٧)، أي أوصى بعضهم بعضًا بالصبر على الإيمان والثبات عليه، وأن يكونوا متراحمين متعاطفين، أو بما يؤدي إلى رحمة الله، ولا شك أن مما يؤدي إلى رحمة الله الخلق الحسن وانتشاره بين المسلمين، وشيوعه بينهم.

إنَّ الإسلام يريد أن يصل بالمجتمع لكي يكون كيانًا واحدًا يؤلمه كله ما يؤلم بعضه، فيصف الرسول ﷺ المجتمع المسلم بقوله: «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى».

ويقول ﷺ : «الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنِ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ وَإِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّه»، والوصف بليغ في هذا التشبيه من المصطفى ﷺ ، حيث يتأثر الجسم بكامله إذا اشتكى عضو من أعضائه، فكأن الأمر دعوة إلى الفرد لكي يصلح نفسه ومن حوله من أفراد أسرته حتى لا يؤثر على سائر المجتمع.

إن مكارم الأخلاق من الضرورات الاجتماعية التي لا يمكن لأي مجتمع من المجتمعات أن يستغني عنها بحال من الأحوال، ومن هنا لا عجب أن تجد الحرص في التشريع الإسلامي على مكارم الأخلاق، والحث عليها، وعلى التلبس بها، وجعلها الأساس في تعامل المسلمين فيما بينهم. وكم من أفراد وشعوب انضووا تحت لواء هذا الدين من خلال موقف أخلاقي المسلم تجاه المسلمين، سواء في مظهر من مظاهر البر بالوالدين، أو تقدير لكبير في السن، أو رعاية الحق مخدوم، أو غيرها من الممارسات الأخلاقية السوية التي تألفها الفطرة السليمة، وتحن إليها النفس البشرية بغض النظر عن الديانة التي تعتنقها. فكيف إذا تصاحب مع ذلك أجر عميم في الدنيا والآخرة، ورضا من الخالق الكريم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

إن المجتمع الذي تنتشر فيه الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة قلما نجد فيه الانحرافات الأخلاقية، ذلك أن أفراده يرتدعون عن أمور كثيرة من المقبوحات السلوكية، بسبب الالتزام الأخلاقي فيما بينهم، ويتحلون بمحاسن الأخلاق انطلاقاً من وازع ديني ذاتي. وهذا ما تنصف به الأخلاق الإسلامية، حيث أنها تخرج من المسلم تديناً وعبادةً إلى الله عز وجل، في السر والعلن، مع وجود الرقيب وبدونه. وهذا بدوره يؤدي إلى تحقيق الاستقرار الاجتماعي وعدم شيوع روح التذمر في المجتمع، وذلك لشعور أفراده بقيمهم الذاتية والمجتمعية نتيجة لذلك التعامل الأخلاقي الأصيل. كما يؤدي ذلك التعامل الأخلاقي الراقي بين أفراد المجتمع إلى شيوع روح التراحم والتواد بين أفراد المجتمع وحمايته من الأمراض الاجتماعية التي تنشأ عادة في المجتمعات التي تسود فيها روح الأنانية المادية والتناحر بسبب سوء التعامل بين أفراده.

كما يعمل حسن الخلق بشكل عام على تعزيز روح الانتماء المجتمعي بين أفراد المجتمع وشعورهم بأنهم جزء من جسد واحد تحقيقاً لحديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى».

والله الموفق

من كتاب : التعامل الأسري في سيرة المصطفى ﷺ ، بتصرف